بيروت

اخبارها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

البحث السادس

آثار الفرنج الصليبيين في بيروت

رأيت ما كانت عليهِ بيروت من العمارة والحضارة في عهد الصليبيين . وقد تلف كثير من آثارهم وصبر بعضها على الزمان من بعدهم

﴿ استحكامات الصليبيين ﴾ قد سبق ان سنجر الشجاعي هدم حصنها المنيع واسوارها وكانت استحكاماتها استوجبت اشغالاً طويلة فكان يحرسها شمالاً من جهة البحر صخور عالية ومن الجانب الغربي كانت تحميها خنادق مبلطة تحت حراسة سورَين حريزين تدعمهما عدَّة ابراج غاية في المتانة لا تقوى عليهما كلّ قوّات العدوّ . وكان يزينها من الداخل ابنية حسنة الهندسة بديعة النقوش . وقد وصف السائح وليرند دي اولدنبرغ بعض قصورها فقال عن احدى غرفاته : «انها كانت مرصوفة بالفسيفساء . وهي تمثل مياهاً جارية يمرُّ عليها النسيم فتتجعَّد بهبوبهِ . وفي اسفلها رمل ناعم فيتعجَّب الماشي فوقها كيف لا تغوص رجلهُ في اعماقهِ . وكانت جدران الغرفة مزدانة بقطع من الرخام المنقوش على صورة تأخذ بمجامع الابصار يظلّلها قبَّة تمثّل بصبغها الازرق شكل السماء . وفي وسط الغرفة حوضٌ من الرخام الصقيل الملوَّن ينفذ اليها نسيم عليل من نوافذها فيرطّب حرارتها»

فكلّ هذه الاستحكامات والابنية الجميلة لم يبقَ لها اثر بدخول المصريين اليها ونهبهم لاموالها فبقيت بيروت خالية من التحصين الى ان عاد ملوك مصر وامروا بتحصينها ردًّا لغارات الغُزاة المسيحيّين من جنوبين وكتلان واهل قبرس فحموها من

جهة البحر ومن الغرب بسور وقد استخدموا لحمايتها بقايا استحكامات الفرنج السابقة . وقد استدلّ جناب الكونت دومنيل دوبويسون (C^te du Mesnil du Buisson) على آثار من تحصينات الصليبيين لبيروت (راجع مقالتهُ المشعة في استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة في المشرق ٢٠ [١٩٢٢]: ٧٥١–٧٦٦ مع رسم بديع لبيروت القديمة)

﴿نقود الصليبيين في بيروت﴾ ضرب امراء الصليبيين من سلالة إيبلين السابق ذكرها نقودًا ذهبيَّة وفضيَّة ونحاسيَّة وكلُّها عزيزة جدًّا لم يبق منها سوى بعض افرادها في متاحف اوربَّة الكبرى . وهذه المسكوكات التي رسمها العلّامة شلومبرجر (Schlumberger) في كتابهِ المعنون بنقود الشرق اللاتيني (Numismatique de l'Orient Latin, p. 118-119) تمثل على احد وجهيها قلعة تعلوها الشرفات وفي مدارها اسم بيروت باللاتينيَّة وعلى الآخر صليب مع اسم جان ديبلين صاحبها

﴿الرهبان الفرنسيسيُّون في بيروت﴾ كان دخول الرهبان الفرنسيسيين في بيروت في عهد الصليبيين وكان دليلهم على ما جاء في سجلّات رهبانيَّتهم دخول الملك لويس التاسع (١) . وكانت كنيستهم هي كنيسة الخضر التي سبق لنا ذكرها في الباب الثامن الاوَّل بحث التاسع حيث جرت فيها معجزة الصليب الذي تزف دماً بضرب احد اليهود . ولمَّا دخل المسلمون مدينة بيروت وهرب اهلها النصارى اضطرَّ ايضاً الرهبان الى الخروج منها . لكنهم عادوا اليها بعد زمن كما سترى واليهم يشير صاحب تاريخ بيروت (ص ١٤٩) قديماً منزلهم كنيسة افرنسيسك

﴿جامع بيروت الكبير﴾ قد سبق لنا ذكر تشييد ملك القدس بودوان لكنيسةٍ على اسم القديس يوحنَّا المعمدان في بيروت سنة ١١١٠م . وهي التي حوَّلها المسلمون بعد ذلك الى جامعهم الكبير وقد حفظوا ذكر القديس يوحنَّا بما يكرم هناك من مقام يحيى النبي والجامع لم يغيّر شيئاً في هندسة الكنيسة المبنيَّة على طرز الكنائس اللاتينيَّة على صورة صليب لاتيني ووجهتها كوجهة الكنائس الشرقيَّة من الغرب الى الشرق وانما أزيل ما كان فيها من الآثار النصرانيَّة كالمذبح والرفوف . وكانت جدرانها

١) اطلب كتاب رؤساء الاراضي للقدسة G. Golubovich: Superiori di Terra Santa. p. 216-7

مزدانة بتصاوير جميلة طُليت بالملاط بعد خروج الفرنج كما افاد صالح بن يحيى في تاريخه (ص ٥٨) . وانما بقي قريباً من باب الجامع الشرقي كوّة لا تزال آية الزبور (٢٨ : ٣) : «ان صوت الرب على المياه» منقورة فيها باليونانية اشارةً الى وضع حجر المعموديّة بقربها

﴿ مناشير للصليبيين ﴾ ومن آثار الصليبيين التي عرفناها بفضل صاحب تاريخ بيروت كتابٌ لصاحب بيروت الذي تولاها مدّة قبل دخول المصريين اليها وهو الامير (همفري دي مونفور) (Humfrey de Monfort) الذي بتزوّجه ابنة جان ابلين الثاني المعروفة بأشيف (Eschive) صارت لهُ امارة بيروت . توفي سنة ١٢٨٤ في ١٢ شباط وهذا نصّ المنشور مع اغلاطه(١ :

ومن مضمون كتاب برمية شكارة العروسيّة من شنفري دي دمونقرب (كذا) الفرنجي صاحب بيروت وهو انهُ قد وهب شكارة مدارة (بذارها) غرارة بنصبها كرم شرط ان لا يبيعها ولا يوهبها ومتى فعل ذلك رجع في رجبو . ومن شروطو مساعدة لصحويتو وان لا يخلّي في بلاده هارب من بلد بيروت الّا ويردّه صاحبا او بغيره وان لا يمكنهُ من الاقامة اربد في (من) نهاية ايّام ولا يمكّن احد من بلاده يقصد في بلد بيروت اعني الساحل لان بلد بيروت كانت حيالهُ في ذلك الوقت للمسلمين وكان الساحل للفرنج . تاريخ هذا الكتاب سنة الف خمسانة واني وتسعين للاسكندر والكاتب كتب اسمهُ حرج من بقرب كاتب الثلمة والكتاب في رنّ وفي ادناه ختم في شمع احمر خيّال فرسو ورمحو وترسو وهو رنك صاحب [بيروت] ودائر الختم كتابة بالفرنجية في اصل الختم

يؤخذ من هذا المكتوب انهُ كتب سنة ١٢٨٠ للمسيح وتجهه مونفري دي مونفور صاحب بيروت الى احد امراء العرب من بني نجتر وهو الامير جمال الدين حجّي بن نجم الدين المتوفى سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م)

وقد روى صالح في تاريخ بيروت مكتوباً آخر كتبهُ صاحب صيدا سنة ١٢٥٥م لحجّي المذكور نحيل القرّاء الى مراجعته هناك (ص ٨٣—٨٤)

ويستفاد من هذه المناشير حُسن العلاقات التي كانت بين الصليبيين المتربّعين على السواحل والامراء البحتريين المسلمين اصحاب جبل لبنان المشرفة عليها . حتى انّ احد

١) اطلب ما كتبهُ في هذه المناشير العلّامة كلرمون غانو Clermont Ganneau: Recueil d'Archéologie Orientale, VI, 1-30

اعداء الامراء المشى تقي الدين نجا بن ابي الجيش - مى بهم زوراً الى ملك مصر الظاهر بيبرس مدّعياً بانهم حالفوا الفرنج وخانوا الدولة فألقى ثلثة من امرائهم في الحبس (تاريخ صالح بن يحيى ص ١٠٢—١٠٣)

هذا جملة ما وجدنا من آثار الصليبيين في زمن ولايتهم الاخيرة على بيروت

الجزء السابع

تاريخ بيروت في عهد ممالك مصر (١٢٩١—١٥١٥)

رأيت ما دلقته بيروت من الهوان في زمن تلك الصليبيين عليها . وما دخلها المصريون حتى عادت الى خمولها لولا بعض ما نالته من حسن مساعي امراء الغرب بما احدثوه فيها من الابنية لسكناهم ولتجارتهم . لكن بيروت لم تفقد في اعين الفرنج شيئاً من عظم شأنها سواء كان من جهة حصانة مركزها ام من جهة التجارة والاقتصاد . وذلك تكرّرت عليها الغارات في عهد ممالك مصر وهنا نحن نذكر اولاً تاريخ الحوادث التي تدلنا على ذكر اعمال امراء بني العرب ومساعيهم في بيروت

لم يمرّ على خروج الفرنج من بيروت سبع سنين حتى حاولوا فتحها . قال النويري في تاريخه (اطلب تاريخ بيروت ٤٧—١٨) :

« في العشر الآخر من شعبان سنة ٦٩٨ هـ (شهر آب ١٢٩٩) وصل الى بيروت مراكب كثيرة وطرّاس (١ الفرنج فيها جماعة كثير من المقاتلة يقال انّ عددهم كان يبلغ ثلثين طسة في كل طسة منها نحو ٧٠٠ مقاتل وقصدوا ان يصعدوا من مراكبهم الى البرّ ويشنّوا الغارة على بلاد الساحل . فلمّا قربوا من البرّ ارسل الله عليهم ريحاً شديدة فرقت بعض السفن وتكسّر بعضها ورجع من سلم منهم على اسوإ حال وكان الله بالمسلمين لطيفاً . (قال) وحكي عن نائب بيروت انه قال : والله لي خمسون سنة لأم هذا البحر ، ما رأيت مثل هذه الريح التي جرت على هذه المراكب وليست هي من الرياح المعروفة عندنا »

وذكر صالح في تاريخه : من محرّم سنة ٧٠٥ هـ (٢٦ تموز ١٣٠٥) بعد ذكره حملة آقش نائب الشام على كسروان انهم اقطعوا الى تركمان اراضي كسروان فأدركوا موانئ البحر ودروب البرّ من ظاهر بيروت الى عمل طرابلس واستمرّوا الى زمن

---

١) البُطَس جمع بطسة لفظة اعجمية يراد بها سفينة الحرب

صالح اعني الى اواسط القرن الخامس عشر وشهروا بتركمان كسروان وعُرفوا به. (قال): «وفي تلك السنة في العُشر الآخر من جمادي الاولى (لتشرين الثاني ١٣٠٥) جازت تمبرة (اي اسطول) للفرنج على بيروت ولم يتعرّضوا لها وتوجّهوا الى صيدا، واخذوها وقتلوا واسروا جماعةً من اهلها (تاريخ صالح ص٥٠—٥١)

وفي تاريخ بيروت ايضاً لصالح (ص١٣٨) وكذلك في تاريخ ابن سباط (ص٢٢ من نسخة مكتبتنا الشرقيّة) ذكر غزو الفرنج الجنويين لبيروت في عيد الاضحى سنة ٧٣٤ه (آب ١٣٣٤). وكانت غايتهم ان يأخذوا مركباً للكتلان من اهل اسبانية التاجرين في بيروت فدافع المسلمون عنهم. قال صالح:

«حضرت شواني للفرنج الجنويين الى بيروت قاصدين اخذ قرقون (١ لطائفة الكتلان في ايّام ولاية عزّ الدين البسري من قبَل تنكز نائب الشام. وقصد المسلمون منْع الجنويّة من اخذ القرقون فقاتلوهم قتالاً شديداً لكنهم لم يقووا على منعهم وقُتل جماعة من الجند والرجال وجُرح بعض الامراء. ودخل الجنويّة الميناء واخذوا الاعلام السلطانية من البحر وقتل جماعة في البرّ وانهزم المسلمون فقاتلهم الجنويّة في الازقّة. ويُذكر انّ القتال استمرّ بينهم يومين»

(لهُ بقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

S. Tolkowsky: The Gateway of Palestine. A History of Jaffa. 1 *vol.* S°, 30 *Illustrations et Cartes*, 1924. G. *Routeldge and Sons, London*

تاريخ يافا

يافا مدينة قديمة ورد ذكرها في الكتابات الهيروغليفيّة والمسماريّة على صورة اسمها حاضراً. واذ كانت مفتاح فلسطين من جانب البحر قضي على الدول القديمة من مصريين وبابليين وفرس ويونان ويهود ورومان وروم وعرب وفرنج واتراك ان

(١ القرقون كالقرقور سفينة طويلة غاريّة واصل الكلمة من اليونانيّة